النظرية الاجتماعية في المعرفة

الدكتور احمد الخشاب

الدلالة الاصطلاحية للمعرفة :

احتكر التفكير التقليدي « نظرية المعرفة [1] » ردحا طويلا باعتبارها قضية فلسفية ، لا ينبغي ان يمتد الى معالجتها اي فرع آخر من فروع المعرفة الانسانية وخاصة بالنسبة للعلوم الوضعية الحديثة . وظل مفهوم المعرفة ينحصر في ذلك المبدأ الفلسفي عن امكانية الفرد لمعرفة الواقع ، وللكشف عن الحقيقة . ونقطة الانطلاق في نظرية المعرفة (عند الفلاسفة) هي الفرد بمعناه المجرد كأنسان ، في استجابته ورجعه ، سواء كان هذا الرجع ماديا محسوسا او معنويا مثاليا معقولا ، او كشفيا لقانيا حدسيا . وقد يقف الفكر الفلسفي احيانا موقفا غنوصيا [2] لا أدريا [3] .

ومن البديهي ان هذه الدلالة الاصطلاحية للمعرفة لا تستقيم في نظر علماء الاجتماع . اذ تختلف وجهة نظرهم عن الفكر الفلسفي من حيث حدود وأبعاد مسألة المعرفة ، سواء في طبيعتها ومصادرها ، او من حيث فاعلياتها ووظائفها وعناصر بنائها وتكوينها ، وسنتبين في الفقرات التالية اتساع اهتمامات علماء الاجتماع بمسألة المعرفة من حيث ينابيعها الاجتماعية في التفاعل والبناء والتراث الاجتماعي ، ومعالجة التأثير والتأثر المتبادل بينها وبين المكونات والعناصر الوظيفة في المجتمع ، ونوضح كيف امتد التفسير الاجتماعي الى العمليات النفسية والعقلية وصاغها صياغة جديدة ، ونشير الى الانطباعات التي تركتها نظرية اجتماعية المعرفة في عديد من الميادين العلمية النظرية والجبهات العملية التطبيقية .

---

(١) الابستمولوجي هو المدلول الفلسفي Epistmology اللفظ الاصطلاحي العام غير ان الفلاسفة يفرقون بين المعرفة التى تسبق التجربة A Priori والمعرفة التى تأتي بالاكتساب A Post teriori

(٢) مشتق من الاغنوصية Agnosticism التي تذهب الى القول بانه لايمكن ادراك كُنه العالم ومعرفة ظواهره بالعقل البشري او بالاحاسيس والمشاعر الحسية القاصرة عن ادراك الحقيقة .

(٣) تختلف اللاأدرية الغنوصية عن ما يفيده مصطلح اللامبالاة Adiaphorism

قدم لنا الفكر التقليدي مجموعة متنوعة من الفرضيات التخمينية التي عبّر عنها بنظريات المعرفة ، وهي على تعددها وتنوعها ، يمكن تصنيفها في أطر فكرية عامة ، سنكتفي بأن نختار منها النماذج التالية : ــ

(آ) المعرفة مصدرها حقائق قبلية "A Priori"

يمثل هذا الاطار الفكري مجموعة من الفلاسفة الذين يطلق عليهم اسم العقليين ، وفي مقدمتهم الفيلسوف اليوناني افلاطون صاحب نظرية المثل ، ويتزعمهم في الفلسفة الحديثة بركلي وهيجل وهربارت ، وهم في جملتهم يزعمون ان الانسان يولد وقد زود بمعلومات وقواعد فكرية وقوانين منطقية ومقولات كلية ، ومعاني مجردة . فالتذكر والتفكير والادراك ما هو الا تركيب او بالاحرى اعادة تركيب لتلك الصور الذهنية الرمزية التي يطلق عليها العلامة هربارت (Herbart) مصطلح Vorstellungen

(ب) المعرفة مصدرها العالم الخارجي وطريقها الحواس .

ويعتبر المفكر «هلفسيوس» (٤) والفيلسوف «جون لوك» J. Locke من خير من يمثل هذا الاتجاه ، فقد دعا كلود هلفسيوس الى المذهب الحسي ــ المادي كطريقة في نظرية المعرفة على اساس ان الشعور او الاحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة واقترح تطبيق هذا المبدأ في دراسة الحياة الاجتماعية .

اما «جون لوك» فهو اول من حاول ان يقابل بين قطبي العملية المؤدية الى المعرفة فالعقل يولد كالصفحة البيضاء Tabla Rasa ، والعالم الخارجي يمد العقل عن طريق الحواس بمواد ومحتويات المعرفة ، فتنعكس على هذه الصفحة في صورة احساسات ، ثم يأتي دور العقل وعملياته في التأويل والتفسير والحافظة والموازنة والذاكرة والتجريد والتركيب ، فاذا حلّل العقل مادة المعرفة وركبها او اعاد تركيبها على النحو الذي تتحلل وتتركب به وفق نظامها

---

(٤) He levetius, C., De L'espirit, 2 vols.
De L'Homme et ses Facultés
Intellectuelles et son Education
Translated by William Mudford,:
Essays on the Mind 1809.

الطبيعي [٥] حصلت المعرفة اليقينية •

(جـ) المعرفة حدْسية وكشفية • Supra-Intellectuelle

يرتكز هذا الاتجاه اساسا على الزعم بانه لا يمكن ادراك كنه العالم ومعرفة حقيقة ظواهره عن طريق العقل او الحس ، فكلاهما قاصر عن ادراك المعرفة اليقينية • ويعتبر الفيلسوف العربي الغزالي من رواد هذا الاتجاه فلقد ذهب الى ان المعرفة اليقينية اشراقية تغزو الحاسة الكشفية ، كما يعد الفيلسوف الفرنسي ديكارت [٦] من اصحاب هذا المذهب الحدسي [٧] • وقد طور هذا المذهب فيما بعد العلامة برجسون [٨] حين اعتبر ان المعرفة اليقينية تأتي عن طريق الحدس Intuition ، وهو ملكه فوق مستوى العقل• وتتفق مع هذا الاتجاه اراء اصحاب الاتجاهات الصوفية والغيبية الذين يعتقدون بأن المعرفة اليقينية تأتي باللقانة واللدنية •

نظرة تحليلية للاتجاهات الفكرية التقليدية [٩]

في ضوء ما تقدم ذكره يمكننا ان نسجل المستخلصات والملاحظات التالية :ـ

(اولا) : ان الفكر الفلسفي ـ في بواكيره ـ قد اصطنع طريق التأمل

---

(٥) يقصد به النظام الشكلي الرسمي الذى تتخذه هيأتها على الطبيعة •

(٦) Formal Discipline.

Descartes: Méditations.

(٧) Intuitionism. — Supra-Intellectuelle.

(٨) Bergson, Henri, Essai sur les donneés Immédiates de la conscience 1946.

Bergson, Les Deux Sources de la Morale et de la Religion, Paris 1955.

(٩) الواقع اننا أدمجنا بعض الاتجاهات الحيوية البيولوجية فى الاتجاهات الفلسفية لان هذه الاتجاهات اخضعت المعرفة لفلسفة التطور ، ونأمل ان نخصص في بحث آخر تفاصيل عن المعرفة من وجهة النظر الحياتية وفى ضوء الدراسات البيوكيميائية والحيوية التجريدية والمختبرية المتقدمة • راجع بهذا الصدد كتاب البرت سيفل « تخطيط المذهب في الاجتماع » •

A. Schaffle; Esquisse d'une Sociologie, 1906.

حيث يرى ان المجتمع « تنظيم اكثر منه تركيب » •

النظري والمنطق الشكلي القياسي والاسلوب التجريدي والمنهج الاستبطاني الذاتي والفرض التخميني في معالجته لمشكلة المعرفة على اساس انها منبعثة من « الذات الانسانيـة » التي عـولجت بمعزل عن « الحقيقة الاجتماعيـة » الموضوعيـة •

(ثانيا) : ان كثيرا ما اختلطت وجهة النظر التقليدية فيمايتعلق «بالمعرفة» بالنظريات الحسية والمادية وبالاتجاهات البيولوجية النفسية ، على اساس الزعم بانها تعتمد الحواس وسيلة للمعرفة ، وانها تنظر الى «المخ» او «العقل» على انه عضوية حيوية ، يمارس فعالياته بمجموعة من العمليات التي يحللها ويتتبعها علم النفس التطبيقي ، وذلك بنفس الكيفية التي تحلل بها الفسيولوجيا (عـلم وظائف الاعضاء) كيفية قيام اي عضو من اعضاء الجسم بوظائفه الحيوية •

والواقع ان وجهة النظر الاجتماعية لاتلتزم حدود ونطاق النظرة العلمية المختبرية التي تتقيد بها البحوث التجريبية البيولوجية والنفسية ، كما انهـا ترى ان « الطبيعة الاجتماعية » تتميز عن الطبيعة « الحسية المادية » ، كما انها تتميز عن « الطبيعة البايولوجية الحيوية » فضلا عن ان لها مشخصاتها الذاتية التي تنأى بها عن ان تكون مجرد « ظواهر نفسية » ، بـل يذهب انصـار اجتماعية المعرفة الى ابعد من ذلك حين يقررون ان البيئة الاجتماعية لها فعاليتها الايجابية من تكييف كل من العمليات النفسية والوظائف الحيوية ، واصطناع المبادىء والمسلمات والمفاهيم الاساسية للفكر البشري • وانه اذا كان العقل الانساني قد تمثل الاخذ بالمنهج التجريبي ، فانه لا يعني ذلك ان ينفصل في ادراكه عن المناخ الاجتماعي الذي تنشأ فيه قيم وتقاليد واعراف وسنن وعقائد وتراث اجتماعي •

(ثالثا) : حصر الفلاسفة معالجتهم للمعرفة في اطار ضيق لا يكاد يتعدى الوعاء المحدود الذي تتم فيه العمليات المؤدية اليها (المخ او العقل) ، وعلى المستوى الفردي ، وان كان الفرد يمثل من الناحية التجريدية الانسان كجنس او نوع وبذلك يرتبط بالاتجاه السيكوبيولوجي (١٠) • ونحن نرى ان الفكر

---

(١٠) نقصد بذلك ان هذه المعالجة تكون مرتبطة بالاتجاه النفسى الفردي مـن ناحية وبالمبدأ الحيوي البيولوجى من ناحية اخرى لان الانسـان كجنس وكنوع يرتبط « بالكائن الحي » فى ارقى مستوياته التطورية وفقا للنظرية الداروينية •

او المعرفة لا تنبثق ـ من وجهة النظر الاجتماعية ـ عن الفرد او الانسان الفرد، وانما ينشأ الفكر وتتولد المعرفة من طريق تفاعل الفرد مع الافراد الذين يظلهم معه مجتمع او جماعة تسير وفق تنظيم او نسق اجتماعي ، وعن طريق تفاعله مع بيئته الاجتماعية بما تنطوي عليه من قواعد وسنن واعراف ونظم ووسائل تواصل فكري وتناقل وجداني ، ازاء الاستجابة والرجع في مواجهة الاحداث الطبيعية والوقائع الاجتماعية .

ومعنى ذلك ان الافكار ليست معاني جاهزة فطرية Innée كما يذهب جماعة العقليين ، كما انها ليست من صنع عمليات عقلية نتيجة ما تنقله الحواس الى المخ من احساسات ومشاعر ـ كما يزعم جماعة الماديين الحسيين، وهي ليست معرفة حدسية كشفية كما يدعي جماعة الاشراقيين ... وانما هي اشياء موضوعية منبثقة من التفاعلات المتبادلة بين الانسان والبيئة الكلية (طبيعية واجتماعية) . فاذا ما نشأت افكار اولية ، فانها لا تلبث ان تتكيف بالمناخ والبنيان الاجتماعي ، وما تلبث ان تنمو المعرفة بتطور وتعقد البناء الاجتماعي ، وتشعب وظائفه وتراكم عناصر ومكونات الخبرات الاجتماعية التي يحملها مركب التراث الثقافي والتقدم التكنولوجي . فاذا ما اتخذت بعض الظواهر على انها دالات مشتركة لظواهر اخرى ، واصبحت الاستجابة موحدة ازاءها بين الافراد ، تولدت الفكرة ، وارتبطت بسلسلة من الافكار التي تتكون على نفس الوتيرة .

وحمادى القول ان المعرفة ليست ذلك النسيج الذي ينسجه العقل في داخليته بحواسه او مشاعره او بعملياته [11] وانما هي تلك المعطيات المتحققة نتيجة تفاعل متبادل بين عناصر الوجود الاساسية : الطبيعية والحيوية والاجتماعية .

(رابعا) : الفصل والمفاضلة بين المعرفة النظرية والخبرة التجريبية والعملية: فهناك رأي يقول ان المعرفة النظرية تشتق من مصدر اسمي من النشاط العملي، ويمتد هذا الرأي الى افلاطون الذي جعل للمعرفة النظرية قوة روحية أجل من الخبرة التي ترتبط بالحياة والمصالح المادية . ومن معرض المفارقة بين المعرفة النظرية والخبرة العملية يرى العقليون ان المعرفة العقلية كاملة وشاملة

---

(١١) مع ملاحظة اختلاف وجهات النظر بين المدارس النفسية والفلسفية والبيولوجية .

في حد ذاتها وهي موصولة بالحقيقة الازلية وبذلك فهي تعتبر يقينية ثابتة ، على خلاف الخبرة العملية التي تدل على النقص والحاجة الى الحياة المادية المتغيرة المتبدلة • وهذه التفرقة بين المعرفة النظرية والخبرة العملية قد اثرت تأثيرا عميقا في افكار الناس وارائهم ، فغرست ردحا طويلا فكرة احتقار المهارات العملية بالقياس الى الدراسات النظرية والعلوم الرياضية والمنطقية الشكلية والادبية • كما انها اشاعت الشك في قدرة المعرفة الحسية على الوصول الى الحقيقة اليقينية •

وفي تصورنا ان التغيرات التي طرأت على الدراسات الطبيعية والكيميائية والحيوية ، وتقدم التكنولوجيا الاجتماعية ، كل هذا وما اليه قد اكد ان المعرفة النظرية ليست متعارضة مع المناشط العملية(١٢) ، كما ان التقدم التكنولوجي وارتقاء البحث التجريبي قد اثبت انه ليس هناك ثمة معرفة حقة او فهم مثمر الا اذا كان وليد العقل والعمل معا (١٣) ، وفي تقديرنا انه يمكن اعتبار التجارب المختبرية والخبرات العملية (١٤) بمثابة خطوات اساسية لاكتشاف الظروف الموضوعية والملابسات الاختبارية التي تجعل « للعمل » قيمة ايجابية أو نفعية من الناحية الفكرية النظرية ، ومن الوجهة التطبيقية العملية (١٥) •

ومن المفيد ان نقرر ـ في هذا المجال ـ ان التصور التكاملي «للبناء المعرفي» لابد وان يرتكز على ضرورة تدعيم الافكار التي تعكس المعرفة النظرية من خلال الخبرات الواقعية والاستخلاصات التجريبية • وهذا الدعم انما يتأتى عن طريق استبار مدى فعالية هذه المعرفة في الحياة العملية من الناحية الوظيفية • واصبح من المسلم به ان هذا النوع من المعرفة النظرية يمكن ان يُعد ضربا من التعبيرات الوهمية أو التصورات الميتافيزيقية ، اذا قصرت المفاهيم والمعاني التي تحملها عن ملاحمة الخبرة الواقعية والتجربة التدقيقية على جبهة المعرفة التحقيقية • وهذه الجبهة تمثل ـ في الواقع المعرفي ـ عتبة اللقاء بين

---

(١٢) Talcott Parsons: Toward a General Theory of Action 1951.

(١٣) Tima Sheff: Sociological Theory N.Y. 1955. p. 137.

(١٤) Lundberg: Foundations of Sociology N.Y. 1939.
Can Science Save Us. N.Y. 1947.

(١٥) Don Martindale: The Nature and types of Sociological Theory. 1961. p. 121.
Talcott Parson: The Social System, 1951.

المعرفة النظرية والخبرة العملية ، فهناك ضرب من « الاخذ والعطاء » بين قطبي المعرفة : أي بين ما تقدم المعرفة النظرية من معطيات فكريـة واراء علمية ، وبين ما تحققه الخبرة العملية وتدققه التجربـة المختبريـة (١٦) من مستخلصات تضاف الى رصيد المعرفة النظرية ـ وهذا الرصيد مردود علمي يخدم التقدم التكنولوجي ويزيد حصيله التجربة والخبرة العملية ...

(خامسا) : وعلى هذا الاساس سنحاول في الفقرات التالية من البحث ان نعيد بناء الهيكل المعرفي في ضوء اراء بعض جهابزة علماءالاجتماع المحدثين والمعاصرين (١٧) ممن وقفوا جهودهم لاستجلاء ومناقشة مسـألة المعرفـة الانسانية من وجهة النظر الاجتماعية .

(سادسا) : على ان عرضنا لن يكون بحال ما ترديدا لآراء هؤلاءالعلماء وانما سيكون انتقاؤنا للمادة العلمية التي تنطوي عليها وجهات نظرهم وفق « وحدات فكرية » تمثل في نظرنا عناصر ومكونات البنيان المعرفي في اطاره الاجتماعي التـكاملي .

ـ ١ ـ

التنشيط الاجتماعي كمصدر للمعرفة

نحن نعتقد أن أقرب صورة تكاملية لهذه المسألة تنعكس في الاطـار

---

(١٦) Descamps (P), La Sociologie Experimentale, 1933.

(١٧) R.K. Merton; Sociology of Knowledge.

G. Gurvitch: Twentieth Century Sociology. N.Y., 1953.

Merton; Social Theory and Social Structure. U.S.A., 1951.

Barber, Sociology of Science.

الفكري العام للعالم الروسي « دي روبرتي (١٨) De Roberty »، وهو صاحب النظرية المعروفة في علم الاجتماع باسم « الوضعية الجديدة » Neo-Positivism وفي تصورنا انه لا يمكن ان نحدد وجهة نظره الا اذا تابعنا التسلسل الفكري الذي انتهجه بهذا الصدد وخاصة من محاولة ابراز « الوجه الاجتماعي » للمعرفة في بحثه القيم عن نظرية المعرفة "Agnosticism" وفي مؤلفه الذي ضمنه « مبادىء العقل ومبادىء الكون » •

لقد حدد دي روبرتي الملامح الرئيسة للنظرة الاجتماعية للمعرفة وفق اطار فلسفته في الوضعية الجديدة ، تلك الفلسفة التي ترتكز اساسا على ضرورة التسليم بوجود ثلاث انواع من الطاقات الاساسية من الناحية الوجودية : طاقة فيزيائية طبيعية ، وهي غير عضوية ، وطاقة حيوية عضوية ثم ثم اخيرا طاقة اجتماعية وهي « فوق عضوية (Superorganic) • وقوام هذه الطاقة الاخيرة الفكر او المعرفة المجردة التي تتمثل في التصورات العقلية والمباديء الاخلاقية والقواعد السلوكية • وقد انتهى دي روبرتي من تحليله

---

(١٨) "De Roberty" • ولد فى روسيا عام ١٨٤٣ كتب اول كتاب بعنوان علم الاجتماع عام ١٨٧٦ دحض اراء اوجست كومت واقام الوضعية الجديدة Neo-Positivism • ومن اهم كتبه نظرية المعرفة Agnosticism وله كتب اخرى من اهمها كتابه فى مبادىء العقل وقوانين الكون •

Les Concepts de la Raison, et Les Lois de L'univers.

كما انه الف فى الفلسفة القديمة والحديثة وفى علم الاخلاق ودستور الاخلاق • وفي البحث عن الوحدة ووضع منهجا جديدا فى علم الاجتماع وكتب عن الروح الجمعية •

ترتكز الوضعية الجديدة Neo-Postitivism على ثلاث عناصر رئيسية •

أ ـ المعرفة الوصفية : تلك التى تكون نتيجة للانطباعات الحسية بحيث يمكن اقامة «نظام» او نسق على اساس هذه الاحساسات •

ب ـ الدراسة الكمية : الاعتماد على التحليل الاحصائي فى البحث و«كيتليه» هو رائد هذا الاتجاه •

حـ ـ الدراسة السلوكية او الاجرائية : وقد اكدها ايفا بافلوف الروسى ، وجون واطسون وبيرسون من علماء امريكا • فلابد من دراسة السلوك الذي يمكن ملاحظته •

Timasheff: Sociological Theory, N.Y. 1955. pp. 139.
Sorokin, P.: Contemporary Sociological Theories Ch., 8 'Sociologistic School. p. 33.

للمعرفة الى ارجاعها الى مصدر اجتماعي حيوي Biosocial Hypothesis وآية ذلك ان اصل التفكير مزدوج : فهو يحوي جانبا حيويا بيولوجيا خالصا يبدو في صورة الانعكاسات الشرطية التي يقوم بها الجهاز العصبي في الكائنات الحية الراقية ، كما يتمثل في التفاعلات التي تتأتى نتيجة عمليات الاتصال بين هذه الكائنات المتطورة وبين الواجهة الاخرى للفكر ، وهدفه واجهة اجتماعية بحته ، تتجسد في الصور الفلسفية والرمزية والفنية التطبيقية ، ويصبح النتاج الفكري امرا ممكنا عن طريق اللغة والخبرة الجماعية ووسائل الاتصال الثقافي والتراث الحضاري والاحتكاك الفكري بين الاجيال المتزامنه.

وحسادى القول فان « دي روبرتي » ينظر الى التفاعل الاجتماعي والتراث الثقافي على انهما عنصران لازمان لظهور او انبثاق الفكر وتشعب العمليات العقلية ونمو المعرفة الانسانية . ويقودنا هذا الى استيضاح طبيعة هذه العمليات الفكرية . وبهذا الصدد لابد ان نعيد تأكيد فعالياتها فهي تقدم لنا صور الظواهر «فوق العضوية» وهي المفاهيم المجردة والحقيقية ، والقوانين والتعميمات الفلسفية والعقائدية ، ورموز الفنون الجمالية والاحكام التنقيحية والفضائل التطبيقية للنواحي السلوكية والاخلاقية. وهذه الصور العقلية تختلف في طبيعتها عن الظواهر الحيوية ، وهذه الاخيرة قد يتولد منها ما يسمى بالعمليات النفسية الاولية : كالتهيج والاحساس والمشاعر والعواطف واستحضار صور المرئيات الثابتة (١٩) وهذه الصور المختلفة للمعرفة هي اهم ما يميز الظاهرة الاجتماعية وما يلازمها من خصائص تحضيرية .

والمسألة الرئيسة التي يجدر بنا ان نواجهها هي كيفية نشأة هذه المفاهيم المجردة : فهل هي فطرية ام مكتسبة ؟ وما هو ينبوع او مصدر انبثاقها وما هي عوامل انمائها وتشعبها ولماذا يختص بها الجنس البشري دون سائر الكائنات الحية الاخرى ؟

وهنا نصبح وجها لوجه امام هدفنا الاول ، الا وهو ان العامل الاساسي المسئول عن ظهور ونمو الفكر او المعرفة فوق العضوية ، هو عامل التفاعل بين عقول افراد الجماعة . اذ لولا هذا التفاعل لما ظهر الفكر في صوره العلمية والفلسفية والرمزية والعملية مهما كان سمو البناء البيولوجي للمركب الحيوي.

---

(١٩) Sensation, Feelings, Emotions and Concrete Representatations. Sorokin, opt. cit. 443.

على ان هناك عوامل مساعدة لتحقق انبثاق الفكر ونمو المعرفة ، ولعل في مقدمة هذه العوامل :

أ ـ اللغة كاداة تواصلية ، فهي عجلة التناقل المتصل للمؤثرات والمحفزات الفكرية الابداعية .

ب ـ الخبرة الجماعية : فهي بطبيعتها ملازمة لظاهرة المعاشرة والجماعية وهي حصاد نتائج العمل الجماعي .

حـ ـ التراث الثقافي والاجتماعي : فهو اداة التفاعل والتواصل الدائم بين خبرات ومعارف الاجيال المتعاقبة .

د ـ المنبهات والمثيرات المتغيرة : وهي عوامل محفزة تثير عملية التفاعل عن طريق الاهتمامات المشتركة بين عقول الافراد الذين تجمعهم مصالح واهتمامات مشتركة .

هذا وما ينبغي التنبيه اليه ان السمة الهامة للنسق المعرفي في نظر « دي روبرتي » هي ان هذا النسق يرتكز على نوع من التدريج في مستويات المعرفة ، وفق سلم معرفي ، ينتظم أطر المعرفة التالية :

(أ) المعرفة التحليلية : ـ

وهي المعرفة التي لا تتقيد بفكرية او عقيدة سبقية ، ويعبر عنها بفكر نظري موضوعي ، يتمثل في المعرفة العلمية النظرية ، التي لا تتناول الجوانب التطبيقية او الفنية العملية .

وتتصف هذه المعرفة بانها معرفة « قطعية » وانها متحررة من النزعات العقائدية التي يعبر عنها الدوجماطيقية كما انها لا تتعدى اطارها النظري الى الجوانب العملية الذريعية التي يعبر عنها بالبراجماطيقية .

(ب) المعرفة التركيبية اليقينية (٢٠) .

وتنطوي على التصورات العقلية الكلية التي تعلو على مستويات المتناقضات الجزئية ، وتتألف من مجموعة المعارف الحدسية واللدنية والالهية والعقائدية والمباديء العقلية الاساسية في المنطق والفلسفة المنهجية .

---

(٢٠) Apodeictical = Inquestioned Acceptance.

(حـ) المعرفة الرمزية والتقييمية . (٢١)

وتتجسدها مجموعة الافكار التي تتخذ « الرمزية » تعبيرا عن القيم الذوقية والجمالية والاخلاقية والظاهرات الوجدانية والمشاعر العاطفية وما اليها من المواقف والاتجاهات والاستجابات ازاء ما يحتاج الى احكام تقييمية .

(د) الخبرة العملية او التطبيقية .

وتمثل الفكر النظامي (٢٢) الملتزم بقواعد معممة في التطبيق العملي ومعنى ذلك انها تتضمن كل ما يخضع لنظام او نسق فكري في النواحي العملية بغض النظر عما يوجد من حواجز بين القواعد التي تخضع لها الظواهر الفيزيائية الطبيعية الكيمياوية ، والقواعد والنسق التي تحدد مظاهر السلوك الاجتماعي والاخلاقي وتحكم التكنولوجيا الاجتماعية باوسع معانيها .

- ٢ -

العمليات النفسية عمليات تفاعل اجتماعية

رأي دي روبرتي (٢٣)

يؤكد « دي روبرتي » على ان التفكير ليس عملية نفسية ، بمعنى ان العمليات العقلية تختلف عن الظواهر والاحساسات والمشاعر النفسية المجردة . وحتى هذه الظواهر الفردية لا تقوم بذاتها ، ولا تنبثق عن ذاتية فردية نفسية والا كانت اشبه بالمشاعر التشتتية التي لا تربطها رابطة تؤكد صدقها او تثبت يقينها . ويمضي «روبرتي» فيقرر ان التفكير يكون ثمرة وتتاج خبرات وتجارب اجتماعية على مدى اجيال عديدة متعاقبة .

يحاول دي روبرتي اقامة الدليل على ان العمليات النفسية ليست منبثقة عن طبيعة نفسية فردية ، ذلك لان المعروف عن طبيعة الظاهرات النفسية انها رتيبة تسير على وتيرة واحدة ، وذلك بحكم جمود وثبات عوامل استثارتها

(٢١) Aesthetical = Jugement des Valeurs

(٢٢) Disciplineal.

(٢٣) Sorokin, Les Theories Contemporaines. p. 444.

مع عدم تنوع المنبهات المحركة او المثيرة لها • وهذا من شأنه ان يحول هـذه العمليات ـ عن طريق الاستمرارية ـ الى عمليات آلية لا شعورية • واذا جارينا هذا المنطق لاصبح الانسان ـ شأنه شأن بقية الـكائنات الحية الراقية ـ التي تحكمها « الميول الفطرية والنوازع الغريزية » ، وبذلك قد ينتهي بـه الامر الى ان يحرم او يقل حظه من الحياة الفكرية وليدة العمليات العقليـة وبالتالي لابد لنا من ان نبدأ بفرضية اجتماعية مصدر التفكير والحياة العقلية التي تميز الانسان عن سائر بقية الـكائنات الحية الراقيـة ، ويكمن هـذا المصدر في عامل التفاعل الاجتماعي ، وينطوي هذا العامل ـ بحكم طبيعته ـ على خاصية « التنوع » في المنبهات وتبادل وتواصل الفعاليات في الاطار العام لعناصر البيئة الاجتماعية ومكوناتها البنائية • غنى عن البيان ان اسـتمرارية « التنوع » وديمومة « الاخذ والعطاء » في عمليات التفاعل من شأنه ان يولد عنصر التجديد والنمو في الفكر • كما ان هذه الاستمرارية في الفعالة تعتبر اكبر ضمان للحيلولة دون نكوص وانتكاس او ضمور مظاهر التفكير والعمليات العقلية الى الحدود التي تحصرها في اطار الظواهر النفسية الحيوية •

وينتهي دي روبرتي الى استخلاص ان الظواهر والعمليات النفسية ذاتها تعتبر نتيجة وثمرة للمؤثرات الاجتماعية وليست سببا لها • ومن ثم فان علم النفس لا يرقى في نظره الى مستوى العلم لان ظواهره واهتماماته ليست لها طبيعتها الذاتية ولا يمكن ان تخضع لسنن وقواعد علمية مقننة •

(٢) رأي دراغيشسكو Draghicesco (٢٤)

نقطة الارتكاز في وجهة نظر « دراغيشسكو » هي في تقـدير وجـود ترابط وظيفي بين العمليات النفسية السيكولوجية وعمليات التفاعل الاجتماعية ويرى دراغيشسكو ان القضية الاساسية في نظرية المعرفة تكمن في محاولـة تفسير نمو الفكر وتقدمه ، ولا غرو ان هذا النمو والتقدم مرتبط بضـرورة وجود منبهات ومحفزات متغايرة ، ولذلك فانه يجدر اصلا استبعاد عوامل البيئة الطبيعية او العوامل الغريزية او الاستعدادات الفطرية او المحفزات الاوليـة كعوامل لنمو الفكر ، ذلك لان من طبيعة هذه العوامل انها ثابتة جامـدة ولا تستطيع ان تقدم منبهات متغايرة ، وعلى ذلك فان مصـدر هـذه المحفزات

(٢٤) Draphicesco: Du Rôle de la Individu.
Sorokin, Opt. Cit. pp. 438 — 445.

والمثيرات لابد وان يكون منبثقا من ظروف البيئة الاجتماعية على اساس انها ـ بدرجات متفاوتة ـ دائبة التغير والتحول وتستلزم بالضرورة رجعا ديناميا واستجابة متغايرة ديناميكية. وانطلاقا من هذه الفرضية استخلص دراغيشسكو النتيجة التالية : الا وهي انه كلما استسلم الانسان في تكيفه لمقتضيات البيئة والتفاعلات الاجتماعية ، وكلما استجاب لمتطلبات ما يطرأ عليها من تحول كلما اضعفت هذه الاستجابات تلك الحالات والظواهر التي يعبر عنها بانها حالات او ميول غريزية او نوازع طبيعية او محفزات فطرية ... الخ .

وبذلك يتقوض شيئا فشيئا فعالية ودور عامل الفطرة او عوامل الوراثة في الذكاء والمعرفة والمهارة بل تصبح المعرفة مكتسبة عن طريق تفاعلات البيئة الاجتماعية ونشاطاتها ، وتتمركز مؤثرات البيئة الاجتماعية حول عامل اساس اطلق عليه اصطلاح عامل « التنشيط الاجتماعي المتبادل » Social Interstimulation وهذا العامل في الواقع ينمي الفكر والمعرفة كما يرقي القدرات التحليلية والتركيبية للعقل البشري عن طريق الاختراع والابداع . فالاختراع في نظره ليس الا تلاحم وتزاوج بين اكثر من فكرة من الافكار المعروفة سبقيا والمحققة تجريديا ، وكلما ازداد تبادل واحتكاك الافكار بين افراد المجتمع كلما ازدادت فرص الاختراع والابتكار والتقدم التكنولوجي ، وفي ضوء هذا يعتبر التفاعل الاجتماعي والتنشيط الفكري رافدي التقدم العقلي والنمو المعرفي .

ويصدق هذا التفسير على تضخم صرح البناء الحضاري ، وتراكم وازدياد حجم النطاق في المجال المعرفي ، وتشعب محتويات المعرفة وتفريعاتها ، وذلك لان دراغيشسكو يرى ان انماط الحضارة وقيم الثقافة لا تنتقل بطريق المورثات الحيوية ، وانما تنتقل عن طريق عملية التواصل الاجتماعي ، الذي يعتبر التراث الحضاري والاجتماعي بمثابة مركبتها التي تحملها عبر الاجيال المتلاحقة وعلى نفس النهج يفسر دراغيشسكو تكامل الشخصية او اضمحلالها فالتفاعل الاجتماعي السوي هو سر تكاملها . اما ضعف الشخصية او اضمحلالها فيعود بالدرجة الاولى الى الصدمات المفاجئة والانتقال غير المتوقع او غير المنظم من بيئة اجتماعية الى اخرى تختلف عنها في مقوماتها الاساسية وطرز معرفتها المألوفة والوان خبراتها السائدة .

Sorokin, Opt. Cit., 443 — 44.

وبنفس الطريقة يوضح دراغيشسكو انه لا يمكن تفسير عملية الداكرة او التذكر او تداعي المعاني وغيرها من العمليات العقلية الا عن طريق عامل التنشيط والتفاعل الاجتماعي في مختلف صوره ومظاهره • وبمعنى آخر ان العمليات النفسية تدين بوجودها الى العمليات الاجتماعية المقابلة لها بل انه يذهب الى ابعد من ذلك حين يقرر ان النفس الفردية ليست الا انعكاسا ميكروسكوبيا (مصغرا) دقيقا للبيئة الاجتماعية في تفاعلاتها وقيمها وعملياتها ونشاطاتها ، وان «الفرد» «ذوات» كثيرة متعددة ، وتتباين هذه الذوات على قدر الجماعات التي ينتسب اليها الفرد • كما انه يعتقد ان القادة والعباقرة لم يصلوا الى عبقريتهم او موهبتهم بفضل تفوق عقلي او ذكائي فطري ، وانما تفوقهم نتاج التكامل الاجتماعي • وآية ذلك ان امثال هؤلاء العباقرة هم اولئك الافراد الذين تصادف تواجدهم عند نقطة تلاقي او عند عتبة او بؤرة التيارات المتفاعلة في المجتمع الذي ينتسبون اليه • وعن طريق تمثلهم للمشاعر والاتجاهات السائدة بين الجماهير ، يمكنهم ان يربطوا بينها وبين وشائجها وان ينظموا حلقاتها ، ومن خلال ذلك يستطيعون ممارسة تأثيرهم في الجماهير •

وحمادى القول ان ما ينسب الى العباقرة من اصالة وتفوق ليس منبثقا انبثاقا ذاتيا شخصيا نتيجة ملكات واستعدادات متوارثة او فطرية ، وانما يرجع الى الوضعية الخاصة بتواجدهم عند نقطة تلاقي وعتبة لقاء الافكار والاتجاهات والمشاعر المتفاعلة في البيئة الاجتماعية المحيطة بجماهير مجتمعاتهم •

(٣) أراء للمدرسة الفرنسية الاجتماعية

يعتبر « دور كهايم»[٢٥] المؤسس الاول لهذا الاتجاه الاجتماعي في فرنسا ، فقد أكد ان الوجود الواقعي انما هو للعقل الجمعي ، وان اكتساب المعرفة يكون بطريق انطباع مؤثرات وظائف التحليل والتركيب التي تحكم البنيان الاجتماعي كما انه توسع من تحليل الحياة الفكرية والعقلية ، وقدم تفسيرا له

(٢٥) أميل دركهايم Emile Durkheim مؤسس المدرسة الفرنسية الاجتماعية التى تحقق على يدها بصفة نهائية وجود علم الاجتماع الوضعى [١٨٥٨ – ١٩١٧] • وقد انشأ المجلة السنوية لعلم الاجتماع L'Année Sociologique وأراؤه بهذا الصدد وردت فى كتابه المعنون الاشكال الاولية للحياة الدينية • Formes Elementaires de La Vie Religieuse

اصالته بالنسبة للمقولات المنطقية "Logical Categories" وخاصة فيما يتعلق بالتصورات العقلية عن الامتداد (المكان) والزمان والعدد والكيف والعلية • وحاول ان يردها الى مصدرها الاجتماعي ، فزعم انها تنبثق من طبيعة التفاعل الاجتماعي والاحتكاك الفكري للافراد والجماعات ، وتنعكس من عقلهم ووجدانهم الجماعي ، ثم تنطبع في عقولهم الافراد وضمائرهم ، ثم تتجسد في صور رمزية متمثلة في الافكار الدينية والقيم الاخلاقية والمبادي الفكرية الكلية ، ثم يعمد العقل الجماعي الى تثبيتها وغرسها وانمائها من اعماق النفوس الفردية عن طريق الممارسات الدينية والتنشئة الاجتماعية •

ونحن ــ وان كنا لانسلم تسليما مطلقا بهذا التفسير الدور كهايمي ــ الا انه لا يسعنا الا ان نشير الى امتداد آثاره عند تلاميذه العلماء امثال « دي بيرييل» (٢٦) « وهاليڤاكس » (٢٧) وقد حاول الاخير ان يثبت ان كل وظيفة نفسية فردية تقابلها وظيفة نفسية ــ جماعية وعالج بوجه خاص مسألة « الذاكرة الجماعية » وانتهى الى ان المجتمع يقوم بتزويد العقل الفردي بمجموعة من « الاطارات » Cadres التي تحدد معالم الذكريات ، وان كل عملية استحضار للذكريات تتطلب بالضرورة استرجاع ما ترتبط به مادة التذكر من اطارات اجتماعية ، وبدون ذلك يعجز العقل عن اعادة بناء الافكار والصور السابقة بطريقة متناسقة متكاملة ، وهذه الاطارات الاجتماعية « كامنة » في الذاكرة الجماعية ومترسبة في وعاء الفكر الفردي • ويعتبر « الزمن » اطارا اجتماعيا للذاكرة ، بل انه شرط جوهري لاتمام هذه العملية وليس أدل على ذلك من « امتلاء » الزمن باحداث وتجارب اجتماعية لها قيمتها الامر الذي يفسره اخذ المجتمعات بفكرة « المجموعات الزمنية المتتابعة والمتكررة بتكرار المواسم الطقسية الجماعية » واعتمادها على التقاويم التي تنبثق من الحدود الزمنية للاحداث الاجتماعية والتاريخية والدينية الهامة • (٢٨)

---

(٢٦) Dupreél, E., Sociologie Generale, 1948.

(٢٧) Halbwachs, Maurice, Les Cadres Sociaux de la Memoire, Nouvelle Edition, Paris, 1935.

(٢٨) اعتبر تأسيس روما • بداية لحساب السنين • كما ان ميلاد المسيح ، وهجرة الرسول (ص) قد أصبحت فى التقويم العصري بداية للتقويم الميلادى الغربى والهجرى الاسلامى العربي وهى ولاشك أحداث ذات طبيعة قدسية واهمية اجتماعية ونقط انتقال وتحول فى الحضارة الانسانية •

ونظر « ليفي بريل » [٢٩] الى الموضوع من زاوية اخرى ، زاعما انهناك فرقا جوهريا بين المبادىء العقلية التي تحكم التفكير عند الرجل المتحضر،وتلك التي تحكم تفكير الرجل المتأخر او البدائي • وتوهم ان العقلية البدائية لها منطقها الخاص ، وان محور هذا المنطق هو « قانون المشاركة » • [٣٠] فالبدائي يعتقد ــ في نظره ــ ان الشيىء واسمه ورسمه وصورته وظله ورمزه شيئا واحدا ، فهو لايؤمن بقانون الذاتية ولايعترف بوجود مبدأ العلية ، وعقليته غير منطقية ، ومعنى ذلك ان العمليات العقلية لتحصيل المعرفة تسير عند البدائيين بغير الطريق المنطقي المعهود عند المتحضرين •

ونحن لا نوافق « ليفي بريل » في استخلاصاته ، فليس هناك « فرق نوعي » في التفكير بين الجماعات البدائية والجماعات المتحضرة ، فالمسألة ــ في نظرنا ــ لا تعدو التفاوت في الخبرات الاجتماعية والتباين في الاطارات والانماط الحضارية والثقافية • ومن الواضح ان الممارسات التي يلتزمها البدائي ، تعكس عجز فكره عن ان يصل الى تحقيق اهدافه العملية بالوسائل التحليلية والعمليات التركيبية التي تزداد نموا بتكثيف عوامل وحوافز التنشيط الاجتماعي [٣١] •

وفي تصورنا ان « الحياة » بالنسبة للفكر البدائي كل متصل ، فاذا كان التفكير العلمي يفصل بين انواع مختلفة من المعرفة المتخصصة ، فان المعرفة البدائية « معرفة انسيابية » تنظر الى الحياة نظرة سيالة ، وتجمع بين المعرفتين النظرية والعملية ، على اساس ارتباط الانسان ارتباطا حياتيا بالمجالين من حيث ان الرأي يكون وليد الخبرة ، كما ان الخبرة تضيف الى الرأي

---

(٢٩) ليفي بريل :

Lucien Levy — Bruhl.

La Mentalité Primitive et La Participation.

"Loi de Participation".

(٣٠) Sorokin; Opt. Cit. p. 448.

(٣١) هذا الاتجاه يتمشى مع رأى العلامة مالينوفسكي

Molinowski; Dynamics of Social Change.

حصيلة نظرية • كما يبدو لنا ان الرجل البدائي عنى [٣٢] بادىء ذي بدء بمحاولة تفهم علاقاته ببيئته الاجتماعية والطبيعيةعلى حد سواء ، وان استجاباته للمؤثرات والدوافع والحوافز كانت بقصد التحسس على الخبرات والوسائل التكنية الاولية والطرق الشعبية التي تسمح للجماعات الاولية بمعالجةمتطلبات حياتها الاجتماعية والمعيشية عن طريق المحاولة والتجربة والمغالبة ثم محاولة الاستفادة من الخبرات المتصلة بين الاجيال المتتابعة ، والمهارات المتجمعة من تراكم العناصر التجديدية التي تكتسبها الجماعات بفضل عمليات التفاعل والتنشيط الاجتماعي من مختلف المستويات والابعاد الزمنية والمكانية والمحاور الوظيفية •

وهذا النتاج الفكري ضروري لتنظيم التجربة الاجتماعية ، اذ انه يعمل على تحقيق التوافق العقلي على قدر من المعاني المزودة بقوى موضوعية والتي تظهر وكأنها معاني كلية مطلقة كمقولات الزمان والمكان والعدد والعلة والنوع •• وحبذا يستطيع « النسق الاجتماعي » كحقيقة موضوعية ووجودية ــ ان يرسخ اسباب استمراره وديمومته بطريق المعرفة النظرية والخبرة العملية التي ينتظمها شكل من أشكال التنظيم المنطقي الفكري يقف جنبا الى جنب مع التنظيم الوظيفي للنشاط الاجتماعي وبدون ذلك لا يستطيع ان يستكمل اي بنيان اجتماعي مقومات وجوده الذاتي •

ـ ٣ ـ
الفكر والبنيان الاجتماعي

تتضح طبيعة الصلة بين الهيكل المعرفي والبنيان الاجتماعي في آراء كثير من علماء الاجتماع المحدثين والمعاصرين امثال « دراغيشسكو » و « كارل مانهايم » و « ميرتون » • يري دراغيشسكو [٣٣] » ان هناك معادلة توافقية بين مدى بساطة وتعقد البنية الاجتماعية ونمو المعرفة التحليلية والتركيبية • بمعنى ان كل ما يطرأ على البنيان الاجتماعي من تعقد في مكوناته ، وتمايز بين وظائف وحداته ، ينعكس في القدرات العقلية التي تقوم بالوظيفة التحليلية ، كما انه عندما تنشط عمليات الادماج والترابط والتكامل الوظيفي والتكويني بين

---

(٣٢) يمكن تحقيق هذه الفرضية من خلال ما أوردناه من تحليل وظيفى للديانة التوتمية ، فى كتابنا (الاجتماع الديني) دراسة تكاملية •

(٣٣) Draghicesco; Du Rôle de l'ndividu. — Sorokin, Opt. Cit.

خلايا نسيج البناء الاجتماعي ، تتقدم في موازاتها ومقابيلها القدرات التركيبية للعقل • وآية ذلك ان نمو الفكر التحليلي والتركيبي ـ الذى هو دالة التفوق والتقدم الاجتماعي والعلمي ـ يرجع الى عمليات التشابك والترابط او التمايز والتباعد ـ في اطار التكامل ـ وما اليها من العمليات التي تجرى على وحدات ووظائف البنيان الاجتماعي •

ويقرر « كارل مانهايم » (٣٤) اننا اذا حللنا الانتاج الفكري لاي مجتمع ، تحليلا موضوعيا ألفينا انه يعكس النظام الطبقي لذلك المجتمع ، ذلك لان الانتاج الفكري لكل فئة اجتماعية يتصل اتصالا وثيقا بمرتبتها الاجتماعية، كما انه يتحدد بوضعيتها في السلم التدريجي للبنيان الاجتماعي ، ذلك لان الجماعة تجسد ما يجري عليها من تجارب وخبرات وما تسعى الى تحقيقه من تطلعات ، وتترجم هذه المواقف والاتجاهات بانواع مختلفة من الافكار والآراء فالناس لا يفكرون الا في اطار محدد باهدافهم ومصالحهم وقيمتهم• ومعنى ذلك ان الفرد حينما يفكر ، فانه لا يفكر تفكيرا ذاتيا خالصا ، وانما يفكر من خلال وجهة نظر الجماعة التي ينتمي اليها سواء كان انتماء ماديا او معنويا روحيا او ثقافيا حضاريا • ويضيف الى ذلك القول بانه غالبا ما تكون افكار الناس ووجهات نظرهم تبريرات لمواقفهم اتجاه القضايا الاجتماعية والاحداث التاريخية او قد يكون تأويلا مستترا مراعاة لاعتبارات نفعية تقتضيها مصالحهم او يتطلبها الحرص على امتيازاتهم الاجتماعية (٣٥) •••

اما العلامة الامريكي « ميرتون » فقد بين كيفية ارتباط المعرفة بالوجود الاجتماعي على النحو التالي :

(أ) الأسس الاجتماعية والاصول الثقافية للمعرفة

ويقصد بذلك الوضع الاجتماعي للفرد وطبقته الاجتماعية وجيله الحضاري ودوره الوظيفي وتخصصه المهني وأسلوبه الانتاجي ، والطائفة او

(٣٤) **Karl Mannheim** : ولد من أب هنغارى وأم ألمانية • درس فى بودابست وباريس وفرانكفورت حتى عام ١٩٣٣ حتى اضطر الى مغادرتها بعد استيلاء النازى على الحكم فى المانيا وقصد الى جامعة لندن توفى ١٩٤٧ وقد ضمن أراءه فى كتابه Ideology and Utopia, 1949 pp. 136 — 146. ودراساته التى نشرت اخيرا بعنوان
Essays on The Sociology of Knowledge 1952.

(٣٥) هذا يوضح اراء (كارل مانهايم) في المعرفة العلمية ، والخبرات العملية Ch. Huxley, I.G.:, Science and Social Needs, N.Y. 1955.

الجماعة التى ينتمي اليها • وآية ذلك ان تفكير الفرد يكون من خلال ارتباطاته المصلحية والروحية والمهنية والثقافية والعاطفية • كما ان فكره يتكيف بالبنيان الاجتماعي والتنظيم الجماعي وما ينطوي عليه من فرص الحراك او النقلة الاجتماعية

(ب) الترابط بين الفكر والعمل (مبدأ العلاقية)

تتوقف صحة المعرفة على مدى مطابقتها للوضعية الاجتماعية ، حيث يظهر الفكر كوسيلة للعمل واكتساب الخبرة ، وتكون المهمة الاساسية لعالم الاجتماع هي محاولة كشف المساوقة والمواكبة والتعاقب والتداخل والعلية بين التجربة العملية والمعرفة النظرية وفقا لمبدأ العلاقية ، فهناك حلقة تواصلية دائرية بين المعرفة والرأي ، وبين المعرفة النظرية والخبرة العملية • ذلك ان الرأي يعكس المعرفة ، كما ان المعرفة هي منتهى ما يصل اليه الرأي بعدتقنينه ، وينمو الرأي عادة من الخبرات الاجتماعية ويتحول الى معرفة ، والمعرفة تشكل هيكل الرأي وهي التي تضفي مزيدا من الضوء على الخبرة ودواليك •

(ج) الهيكل البنائي للمعرفة

للمعرفة هيكل بنائي ونظام تكويني ، وتستمد المعرفة عناصرها الاولية من مركب معقد من الظواهر الفيزيائية والحياتية والاجتماعية « فزيوبيو اجتماعية » • وينمو هذا البناء المعرفي بالتراكم الكمي والنوعي والكيفي للمعارف النظرية والخبرات العملية ، وما ينبثق عن هذا من اطارات اجتماعية وترابطات علاقية ، وما يتخلل ذلك من عمليات التحليل والتركيب والملاءمة بين الفكرة والواقعة المادية او الاجتماعية •

وعند هذا القدر من المقتطفات التي تشير بصورة عامة الى الاتجاهات الحديثة والمعاصرة للنظرية الاجتماعية في علاجها لمسألة المعرفة الانسانية ، يجدر بنا ان نشير بصورة مقتضبة الى اثر هذه النظرة وانطباعاتها في بعض فروع المعرفة الانسانية •

---

(٣٦)
Merton, Robert; The Sociology of Knowledge ... in the 20th Centruy Sosiology. Ed. By:
Gurvitch and Moore, N.Y. 1945. pp. 373.

Knowledge, Opinion, Experience. • العلانية بين المعرفة والرأى والخبرة

ـ ٤ ـ

انطباعات اجتماعية المعرفة

اولا : علم اجتماع المعرفة **Sociology of Knowledge**

كان لهذه النظرة الاجتماعية في دراسة مسألة المعرفة أثرها في نشأة فرع مستحدث من فروع علم الاجتماع اطلق عليه اسم « علم اجتماع المعرفة » ولا شك ان كثيرا من العلماء الذين وردت اسماؤهم في هذا البحث قد اسهموا في تكوين المادة العلمية لهذا الفرع ويعتبر « كارل مانهايم » من الرواد الاوائل لارساء دعائم هذا الفرع ، فكان كتابه الشهير « المثالية والايديولوجية [٣٦] » مقدمة لعلم اجتماع المعرفة ، كما اولى ميرتون مزيد عنايته لهذا العلم الوليد . فخصه بالكثير من البحوث والدراسات في معالجته للنظرية الاجتماعية [٣٧] ، كما حفلت الدراسات الانثربولوجية بكثير من الشواهد الميدانية التي تعتبر مستخلصاتها تطبيقا عمليا لنظريات اجتماعية المعرفة ، على اساس اثبات ان الينابيع الاصلية للمعرفة الانسانية تكمن في عوامل التنشيط والتفاعل الاجتماعي ، وتنمو وتزدهر بمكونات البيئة الاجتماعية وتتأثر بالبناء الثقافي استنادا الى فرضية مؤداها ان التحول والتعقد المورفولوجي والوظيفي من شأنه ان يعطي مجالات واجواء اجتماعية تساعد على انبثاق العنصر التجديدي والابداعي في البناء المعرفي . وتبرز الى الوجود نظرية سوروكن في اعتبار ان «البناء الثقافي» له وجود ذاتي وهو الاصل المرجعي لكل اشكال المعرفة وما تحويه من مضامين التجربة الاجتماعية ويصبح التفسير الاجتماعي للعمليات العقلية والمقولات الفكرية ذا قيمة علمية وموضوعية [٣٨] .

ثانيا : علم اجتماع العلم **Sociology of Science:**

وهو من احدث ميادين علم الاجتماع ، ويعتبره البعض فرعا هاما من

Mannheim, K. Ideology and Utopia, An Introduction to The Sociology of Knowledge.
Man and Society in an age of Reconstruction.

(٣٧) Merton, R: Sociology of Knowledge. in 20th Century. Sociology by Moore. Social Theory and Social Structure, N.Y., 1960.

Stark, Werner: The Sociology of Knowledge, London 1960, pp. 31 — 35.

(٣٨) Sorokin: Contemporary Sociological Theories.

فروع علم اجتماع المعرفة ، اذ يعتبر الجسر العلمي الذي يصل بين المعرفة الوضعية العلمية والبيئة الاجتماعية ، ويوضح الاصول الثقافية والاجتماعية والتاريخية للانجازات والنظريات العلمية في ضوء العلاقة المتبادلة بين الرأي والمعرفة والخبرة ، وبين العلم والمجتمع ، وفي ضوء الادراك الكامل لدور العلم في عمليات التطوير والتنمية الاجتماعية .

ولقد ساهم كثير من علماء الاجتماع المعاصرين في بناء هذا الفرع المستحدث ، فلقد اوضح العالم الامريكي « تالكوت بارسونز » (٣٩) اهمية هذا الحقل الجديد باعتبار ان لكل جماعة مهما كان مستواها الحضاري علمها ، فالعلم ظاهرة اجتماعية . وقد خص الجماعات الغربية المتقدمة من الناحية التكنولوجية بالدراسة التحليلية ليبين كيفية تحول المعرفة العلمية التجريبية الى عمليات تكنية تطبيقية .

ونلحظ عناية خاصة بهذا الحقل في دراسات « روبرت ميرتون » (٤٠) حيث يعالج طبيعة العلاقة بين التطورات العلمية والظروف والهيئات الاقتصادية والاجتماعية ، وابرز بوجه خاص تأثير الدراسات الانسانية على تقدم المعرفة الوضعية والمادة العلمية ، كما تعرض بالتحليل لدراسات « زنانيكي » (٤١) الخاصة بالادوار الاجتماعية التي يقوم بها المشتغلون بشئون المعرفة والدراسات العلمية ، موضحا طبيعة تكوين هذه الادوار وكيفية تأثرها بالانماط المعيارية التي تحكم مواقفهم وعلاقاتهم الاجتماعية .

هذا ولقد افرد « برنارد باربر » (٤٢) مؤلفا خاصا عن « سوسيولوجية العلم» أشار فيه الى جهود العلامة « اوبنهايمير(٤٣) » في توضيح الدورالوظيفي للنظام الاجتماعي في تقدم البحث العلمي وخاصة بالنسبة « للعقل المتفتح » ،

---

(٣٩) Talcott Parsons: The Social System 1951
Toward a general Theory of Action.

(٤٠) Robert Merton: Social Theory and Social Structure
5th Ed. N.Y. 1962, p. 533.

(٤١) Florian Znaniecki: The Social Role of the Man of Knoledge
: A Review by Merton. Reprinted from American Sociological Review, Vol. VI, No. 1. 1941.

(٤٢) Bernard Barber: Sociology of Science, N.Y. 1962 pp. 6, 14, 67, 90, 539, 540.

(٤٣) Robert Oppenheimer: The Open Mind.

كما ضمن مؤلفه دراسات وبحوث كارل مانهايم في علم اجتماع المعرفة ، وابرز ضرورة دراسة العلم كظاهرة اجتماعية وذلك بردها في مراحل تطورها الى العناصر الاجتماعية التي تحمل بين طياتها طابع العصر المتزامن معها والمتواكب مع مختلف تطوراتها ، وبحثها في ضوء الانماط الثقافية والحضارية والنسق الاجتماعية التي لازمتها .

ثالثا : تطور مفهوم القيمة الاجتماعية(٤٤)

يبدو انطباع اجتماعية المعرفة على التفسيرات والتحليلات التي يقدمها علماء الاجتماع المعاصرين لمفهوم القيمة الاجتماعية ، ونلخص فيمايلي الاطارات العامة التي توضح ذلك .

(أ) ان العنصر الادراكي للقيمة ليس مجرد احساسات خالصة او صور ذهنية مجردة ، وانما هو حصيلة التجربة والخبرة المستمرة نتيجة النشاطات الجماعية (٤٥)

(ب) ان القيم الاجتماعية تعتبر من الناحية الوظيفية احد الدعائم الاساسية للتنظيم الاجتماعي ، فهي تنطوي على نماذج تنظيمية للقيم الاخلاقية كما انها تحوى محكات ومقاييس تعتيمية للعمل والسلوك الفردي والجماعي .

(ج) للقيم الاجتماعية نظام ونسق قيمي ، ينتظم سلسلة من المعارف والاهتمامات التي تنبثق عن التنظيم الاجتماعي ، وهي تتواجد متفاعلة ، وتنشأ بينها ارتباطات متجددة بصفة مستمرة للافصاح عن مواقف ضرورية لسلامة البنية الاجتماعية .

(د) ان انسان القيم لا تعمل كوحدات منفردة ، ولكنها تعمل متوافقة مرتبطة في كل مرحلة ارتباطا بنائيا ووظيفيا بالانساق الاجتماعية ، ولذلك فان اي تغيير في اي نسق منها يؤدي الى تغير مقابل او مصاحب وبالتالي ينتهي الى تغير مواز للقيم الاجتماعية او لبعض عناصرها او مظاهرها (٤٦) .

---

(٤٤) Ribin, W: American Society; A Tentative Outline of American Vales.

(٤٥) Adler, Frans: The Value Concept in Sociology in The Am. Jour. of Sociology. Nov. 1956. No. 3.

(٤٦) Parsons, Talcott: The Social System, pp. 57 — 67, 101 — 112.
Situational Variability.
Types of Value — Orientation.

(هـ) تقوم القيم ـ بأنساقها وتدرجاتها ـ بتوحيد النظرة للمحيط الاجتماعي في اطاره التنظيمي الوظيفي والتكويني البنائي • وعن طريق الفعاليات الاجتماعية تتكامل وتتماثل المفاهيم حول المثل والتطلعات والفلسفات وما الى ذلك من مظاهر العمليات الفكرية التركيبية والتحليلية والتي تتجسد في اشكال مسلمات المعرفة اليقينية والاحكام التقييمية •

رابعا : اجتماعية المعرفة وانطباعاتها على التربية

أصبح لنظرية اجتماعية المعرفة انطباعات هامة في النظم التربوية فأخذت التربية تؤكد على ان مضامين الفكر لا يمكن فهمها الا في ضوء القوى والدلالات الاجتماعية ، الفترة التي تسود فيها تلك الافكار ، ومن ثم لا يمكن تصور أزليتها وابديتها او عموميتها المطلقة ، طالما لا يمكن ادراكها الا على هدى الواقع الاجتماعي • وأدى هذا المنطلق الى التقليل النسبي من الاعتماد على الآراء الميتافيزيقية المجردة ، والى ضمور الاخذ بالافتراضات والتأملات التخمينية ، والى انحسار في الاتجاهات والنزعات التعميمية • وبدأت العناية توجه الى الكشف عن العلاقات بين انماط التفكير والمفاهيم العلمية وبين الظروف الاجتماعية من الناحية التطبيقية الواقعية •

ولقد كان لهذا الترابط والتفاعل بين التفكير النظري والواقع الاجتماعي ان غدا هدف المعرفة الرئيسي هو محاولة مقابلة احتياجات المجتمع بصورة واعية ومخططة ومدققة ، ومن هنا خفت صيحات رجال التربية الذين ينادون بشعار « العلم للعلم » ، وخاصة بعد ان اصبحت الدولة الحديثة تهيمن على الطاقة الفكرية ، وتتولى الاشراف على تعبئة النشاط العلمي لصالح التقدم

يرجع الى المؤلفات التالية للوقوف على مدى تغلغل النظريات الاجتماعية فى مختلف مناحى الحياة العملية :

Redfield, Robert and Warner: Cultural Anthropology and Modern Agriculture. Farmers in a changing World, 1940.

Weeks, James: The Use of Sociology in an Industrial Medical Program. Social Forces Vol. 32. Oct. 1953.

Taylor, Carl: The Contribution of Sociology to Agriculture Farmer's Year Book, 1940.

Cook, Lioyd and Elaine: A Sociological Approach to Education, N.Y. 1950.

الاقتصادي والاجتماعي ، وبذلك برز دور العوامل الاجتماعية في تكييف وتخطيط ألوان المعرفة حتى يمكن استغلال نتائج الدراسات الانسانية والبحوث العلمية والخبرات التطبيقية وفقا لشعار « العلم في خدمة المجتمع » .

وقد كان لهذا صدى في ربط رسالة المؤسسات والمنشآت الثقافية والتربوية بالبيئات المحلية والجماعات المغلقة والقطاعات المتخلفة للقيام بدورها الايجابي في عمليات التنمية على المستوى الوطني . وقد كان لهذا صدى في تطوير برامج ومناهج الدراسات الانسانية وخاصة في فروع علم الاجتماع التطبيقي ، حيث اصبح من الممكن الاستفادة بمعطيات هذه العلوم في مختلف الميادين العملية التي يمكن ان تستفيد من نتائج الدراسات الاجتماعيةوخاصة في حقول الامن الصناعي والتأهيل المهني والطب الاجتماعي والارشاد القومي والترشيد الانتاجي في المجال الصناعي ... بل وتغيرت تبعا لذلك النظرة الى « الثقافة » : اذ تطور مفهومها وتجاوز حدود التعلم والتربية وتحصيل المعارف العامة واصبح يستغرق كافة مظاهر التزود بانجازات التحضر والتمدين والتقدم التكنولوجي على اساس ان الثقافة تحوى « الميكانزم التجديدي » للمستوى الاجتماعي ، الذي يساعد على اعادة صياغة المعرفة المستمدة من الحراك والتقدم في الجانب الحضاري المادي والروحي المعنوي .

وأهم ما يعنينا ان نؤكده في هذا المجال انه ـ يفضل هذه النظرة الاجتماعية للمعرفة الانسانية ـ ، قد برز الى حيز الوجود الفعلي ـ بالنسبة للتخطيط التربوي ـ اهمية العنصر الاجتماعي الانساني كعنصر اساسي . فلم يعد هدف التربية في المجتمعات المتقدمة مجرد تكوين المهارات الفنية العلمية والكفاءات التكنولوجية العملية ، بل اصبح ما يسمى « بتكوين رأس المال البشري » هدفا ومطلبا مقصودا لذاته ، على اساس انه وسيلة فعالة لتهيئة قوة بشرية قادرة على تحريك البنية الاجتماعية المتخلفة ، لتحيلها الى بنية اجتماعية متقدمة وخلاقة او صالحة لممارسة وتقبل الدور الوظيفي للمعرفة على اساس ما لها من مردود منتج ومثمر يخدم مجالات التقدم في ميادين العلم النظري والتكنولوجيا العملية .

Malinoweski: B. Art. "Culture", Ency. of Social Science, Vol. 14.
Sorokin: Social and Cultural Dynamics, 1927.
Wissler, Clark: Man and Culture.

وبعد فهذه لمحات مقتضبة عن انطباعات النظرية الاجتماعية في المعرفة ونأمل ان نكون قد ألقينا بعض الضوء على الدور الذي لعبته هذه النظرية في التمهيد لآفاق جديدة تحقق للانسانية سبيل التقدم والازدهار .

والله ولى التوفيق

مراجع مقترحة

Adler, Frans; The Value Concept in Sociology
in Amer. Jour. of Sociology, Nov. 1950.

Barber, Bernard; Sociology of Science, N.Y. 1962.

Brúhl Lévy; Mentalité Primitive et La Participation.

Cook, Lioyd and Elaine; A Sociological Approach to Education, 1950.

De Roberty; Agnosticism.
Les Concepts de la Raison et Les Lois de l'univers.

Draghicesco; Du Rôle de L'individu.

Dupréel; Sociologie Generale, 1948.

Durkheim, Emile; Formes Elementaires de La Vie Religieuse. Sociology and Philosophy Trans. by. D. Pocock. 1953.

Espinas; Alfred; Origines de La Technologie. 1901.

Halwach, Maurice; Les Cadres Sociaux de La Memoire, 1935.
Morphologie Sociale, 1938.

Helvetius, C.; De L'Esprit, 2 vols.
De L'Homme, de ses Facultés Intellectuelles et son Education. Trans.by Mudford: Essays on The Mind.

Herskovits, M.; The Problem of Adapting Societies to New Tasks.
in Progress of Underdeveloped Areas ed. by Bert 1959.

Hoselitz, Bert; The Problems of Adapting and Communicating Modern Techniques to Less Developed Areas, 1957.

Lundberg; Foundations of Sociology 1939.
Can Science Save Us 1947.

Malinoweski; Dynamics of Social Change.

Mannheim, Karl; Ideology and Uptopia, 1949
Essays on the Sociology of Knowledge 1952.

Merton, R. K. Sociology of Knowledge.
in 20th. Sociology ed. by Gurvitch, 1952,
Social Theory and Social Structure, 1951.
Odum, H. W.; Understanding Society, Principles of Dynamic Sociology
Parsons, Talcott; The Social System 1957
Toward a General Theory of Action.
Sorokin; Contemporary Sociological Theories.
Stark, Warner; The Sociology of Knowledge, London 1966.
Timasheff; Sociological Theory 1955.
Znaniecki; Florian, The Method of Sociology.
The Social Rôle of The Man of Knowledge.
American Sociological Review, Vol. VI. 1941.